الفصل الثالث

بنات النبي ﷺ

obeikandl.com

obeikandl.com

زينب الكبرى

تزوج النبي ﷺ بخديجة، وعاش معها عيشة الهناء والسعادة، لم ينغِّص حياتهما أي شيء برغم ما كان بينهما من فارق السن.

وخديجة امرأة طاهرة الذيل، عفيفة العرض، كريمة الأصل، واسعة المال. تزوجت قبله برجلين وأنجبت منهما، ولكنها مع زوجها الثالث ـ الكفء الكريم الذي تتطلع إليه العيون مهابة وإجلالاً ـ كانت مشتاقة إلى أن يكون بينه وبينها رباط من مولود يملأ عليهما الحياة، ويضفي على البيت بهجة وسروراً. ولما أحسَّت ببوادر الحمل فرحت من أعماقها وأقبلت تزف البشري إلى زوجها، وما هي إلاّ أيام حتى تلقّى الزوج الكريم أول مولودة له من زوجته الوفية البارّة، ورنا إلى الطفلة بنظرة الأب الحاني العطوف، وقد سمَّاها «زينب».

ومن المعلوم أن إنجاب البنات في المجتمع العربي كان سبباً في سواد وجه الأب لما يظن أن ذلك يجلب عليه العار والخزي، والقرآن الكريم قد صوَّر لنا ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1]. لكنَّ محمداً فرح بالمولودة، وظهر البِشْرُ على وجهه مما يدل على سمو نفسه وعلوّ همته. وعطف محمد ﷺ على ابنته وأعطاها من حنان قلبه، وهو بذلك يغيِّر نظرة المجتمع إلى البنات وإنجابهن، فليس في ذلك عار كما يظن الجهلة أصحاب العقول الضعيفة، فالبنت شقيقة الولد، وكل منهما له رسالة في المجتمع، والله يُعْطي كل فرد ثوابه على عمله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[2].

---

(١) سورة النحل، الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٤.

وعاشت البنت في كنف أبيها يؤدبها ويهذب أخلاقها ويغرس فيها مكارم الأخلاق، وينمي فيها الصفات الحسنة، يتعهدها بتوجيهاته حتى إذا بلغت من العمر عشر سنوات بدأت عيون الهاشميين تتطلع إليها، وأصبح كل فتي في مكة يتمناها زوجة لنفسه ترعي له بيته وتشرف على شؤونه، لأنها العاقلة الفاضلة المهذبة الكريمة بنت محمد العظيم. وكان كل إنسان تحدثه نفسه، ولكنه لا يجرؤ على أن يعلن ذلك حتى لا يرفض طلبه. وكان هناك «أبو العاص بن الربيع»، أحد رجال مكة الذين لهم مكانة، وعندهم مال، ثم إن خالته السيدة البارَّة خديجة بنت خويلد، فتقدم إليها وعرض عليها أن يكون له شرف الارتباط بزوج خالته العظيم عن طريق زينب، فأشارت إليه أن يتقدم إلى محمد من تلقاء نفسه، وتقدم أبو العاص إلى محمد وفاتحه في هذا الموضوع وقال له: «**أنت نِعْمَ الصِّهْر الكفء العظيم**». ولكنَّ محمداً لم يشأ أن يقطع برأيه حتى يشاور ابنته القريبة من قلبه، الحبيبة لنفسه، ثم انتقل إلى ابنته وعرض عليها ما تكلم به أبو العاص وقال لها: «**يا بنتي، لَكِ ما أردْتِ**». وصمت محمد، ولم يسمع منها أيَّ ردٍّ ولا تعقيب، اللهم إلاّ خفقات قلبها الطاهر ودعوات أمها الحنون.

وَوُوفِقَ على هذا الزواج، وأبو العاص يلتقي نسبه مع النبي ﷺ عند عبد مناف بن قصي، فهو قرشي حميم، ويلتقي نسبه من جهة الأم مع خالة زينب هالة بنت خويلد بن أسد، ومع هذا الأصل العريق وصلة القربي فلقد كان كريمَ الخصال، حيث إنه كان يشتهر في وسط المجتمع بالأمانة.

العروس زينب

زُفَّتْ زينبُ إلى بيت زوجها أبي العاص، وعاشت عيشة طيبة ليس فيها ما ينغِّص حياتها، اللهم إلاَّ تلك الفترات التي كان أبو العاص يسافر فيها في تجارته. وكانت زينب تعيش في بيتها، فإذا طال غياب زوجها انتقلت إلى بيت أبيها تجد في كنفه الحب والحنان.

ومضت الأيام هنية لا يعكر صفوها أي شيء، وقد اكتملت سعادتها بأنْ مَنَّ

الله عليها بمولودة سَمَّاها جدها «أُمامة» وكثيراً ما كان الجد يداعبها في حنان.

وكانت «أمامة» قرة عين لوالدها. لقد كان محمد في تلك الفترة يتعبد في غار حراء ويتحنث هناك الليالي ذوات العدد، وكانت تري أمها وهي راضية مسرورة ليس هناك ما يعكر صفوها، بل كانت تري في عيني أمها سرًّا لم تستطع إدراكه، ومضت الأيام، وذات صباح توجهت إلى بيت أبيها حيث كان زوجها في سفر، وعندما اقتربت من باب الدار إذ بأمها تخرج مسرعة ثم تعود بعد قليل والاهتمام بادٍ عليها، واقتربت من الحجرة التي يرقد فيها زوجها الكريم، ثم تنهدت وكأنها بذلك نفضت عنها بعض مخاوفها. وكانت زينب تنظر ولا تدرك ما يجري حولها، وإذا بفاطمة أختها الصغرى تقدمت منها وقالت لها: أبشري يا أختاه، فإنكِ بنتُ نَبِيِّ هذه الأمة. فأسلمت في التوِّ واللحظة، ثم أصغت بأذنها وقلبها إلى أمها وهي تحدثها بإعجاب عن نزول الوحي على أبيها وهو في غار حراء، وأن الملَك من السماء نزل عليه وقال له: اقرأ يا محمد، وأنه جاء إليها يرتعش فؤاده من هول ما رأى، فدثَّرته وأراحته حتى نام، وانطلقت إلى ورقة بن نوفل الذي أخبرها أن الناموس الذي نزل على زوجها هو الناموس الذي نَزَلَ على موسى من قبل. وأصبحت الدنيا أمام زينب يغمرها نور وشعاع من هدي السماء بعد أن تنزلت آيات الوحي على أبيها.

موقف الزوج

عادت زينب إلى دارها وما هي إلاّ أيام وعاد زوجها أبو العاص من رحلته، وقد وصل إلى مسامعه ما تكلم به صهره من أن وحيَ السماء نزل عليه، وأسرَّتْ زينب إليه بالخبر، وأخبرته أنها أسلمت، لأن النبي هو أبوها، ثم هي تعرف من صفاته وأخلاقه أكثر ما يعرف الغَيْر. ولكن أبا العاص لاذَ بالصمت وقال: إني خائف لو اتَّبَعْتُ ما قاله صهري الكريم لقال القوم عني إني فعلت ذلك إرضاءً لكِ. وعاشا مع بعضهما أياماً هي مسلمة مؤمنة وهو على دينه. وطالت الأيام، وحُوصِرَ أبوها ومن معه من المؤمنين في شِعْب أبي طالب، وطال الحصار، وكانت هي

بالخارج يؤلمها ما يؤلم من بالشعب، ولكنها لا تملك إلاّ أن ترفع وجهها إلى السماء وتسأل الله أن يعينهم على محنتهم. وعندما فُكَّ الحصار ما هي إلاّ أيام حتى انتقلت الأم الكريمة «خديجة» ـ الأم الوفية التقية النقية التي أعطت ولم تأخذ، وضَحَّتْ ولم تسأل ـ إلى الرفيق الأعلى. ومضت الأيام، وهاجر أبوها الحبيب الغالي من مكة إلى المدينة، وبقيت هي وحدها تنظر إلى ديار الأحِبَّة فيمزق قلبها الأَسَى، وكانت تتذكر ما كان لها من أيام كلها سعادة بين أحِبَّة منهم من ذهبوا إلى غير رجعة كأمها خديجة وأولادها الذكور، ومنهم من هاجر واغترب كوالدها وأم كلثوم ورقية وفاطمة.

قلادة خديجة

ومضت الأيام، واقتربت نُذُر الحرب والاصطدام بين فئة مؤمنة بقيادة نبي طاهر، وفئة مشركة بقيادة أعداء الله وأعداء رسوله، ورأت قريشاً تتحرك لأول غزوة وأول اصطدام، وباتت لا يعلم إلا الله مَدَي ما بها. لم يُغْمَضْ لها جفن، ولم تنم لها عين. ومضت الأيام حتى جاءتها عاتكة بنت عبد المطلب عمتها فأخبرتها أن أباها انتصر على المشركين، فمنهم من قُتِل، ومنهم من أُسِرَ، ثم جاءت الأنباء بأن زوجها من ضِمْن الأسري ولا بد من الفداء يدفع عن كل أسير. ثم جاء عمرو بن الربيع شقيق أبي العاص وطلب من زينب أن تدفع الفداء لزوجها، فأرسلت قلادة كانت أمها أهدتها لها يوم زفافها، وما إن وصلت القلادة إلى يد الرسول حتى أطرق في خشوع وطافت أمام عينيه ذكري ذَكَّرَتْهُ بها تلك القلادة. إنها «خديجة» الزوجة الوفية التي شاركته أيام الرسالة الأولي وتحمَّلت العنت والإرهاق، ومضت إلى ربها قبل أن تذوق طعم الانتصار. ثم قال: «**تلك قلادة زينب إنْ أَرَدْتُم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا**». فقال الصحابة: نعم يا رسول الله.

وبعد فك الأسير من أسره أدناه صهره الكريم وأَسَرَّ إليه بحديث مضمونه أنه يُرسل بزينب لأن الإسلام فَرَّقَ بينها وبينه.

أبو العاص يستجير

ووافق أبو العاص وعاد إلى مكة فجهَّز زينب لتلحق بأبيها، وعرفت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بسفر زينب، فأرسلت وراءها هبَّار بن الأسود الأسدي الذي روعها بالرمح ونَخَس البعير الذي تمتطيه، فوقعت زينب على الصخرة فنزفت دماً وطرحت جنيناً كان في أحشائها، وعادت إلى مكة حتى استراحت أياماً ثم خرجت إلى يثرب. ومضت أيام حتى كانت السنة السادسة من الهجرة. وفي ليلة من ليالي جمادي الأولي وجدت أن أبا العاص بن الربيع يدخل عليها بيتها، ولم تصدق زينب عندما رأته، ولكنه أخبرها أنه خرج في تجارة لقريش إلى الشام، فأخذ أتباع أبيها ما معه من المال، أما هو فهرب منهم وجاء يستجير بها. فقالت: مرحباً بك يا ابن الخالة يا أبا أمامة العزيز. ثم وقفت على باب بيتها تصيح: أيها الناسُ، إني أجرتُ أبا العاص بن الربيع.

وسمع الناس صوتها وفيهم رسول الله ﷺ، فقال: **«هل سمعتم ما سمعت؟»**، قالوا: نعم يا رسول الله. قال: **«والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم»**. ثم قال: **«إنه يجير على المسلمين أدناهم وقد أَجَرْنا مَنْ أجارت»**. ثم سأل الرجال الذين كانوا في السرية وقال لهم: **«إن هذا الرجل منَّا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنَّا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فَيْءُ الله الذي أفاءه عليكم، فأنتم أحق به»**. فأجابوا: بل نرده يا رسول الله.

إسلام أبي العاص

وأخذ أبو العاص ماله ورجع به إلى قريش، وأعطي كل ذي حق حقه، ثم وقف وقال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال؟ قالوا: لا. فقال: والله ما منعني من الإسلام إلاَّ أن تظنوا أني إنما أردتُ أن آكلَ أموالكم، أما الآن فأنا أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله. ثم هاجر إلى يثرب، وحسن إسلامه، ورد الرسول عليه زوجته.

ومضى عام، وفي مستهل السنة الثامنة ماتت زينب، وكان بها آثار من علَّتها عندما طرحها البعير، وصَلَّي عليها أبوها، وعاشت «أُمامة» صورة حية من الراحلة تؤنس الأب، وكان الرسول يحبها. ولم يتزوج أبو العاص حتى لحق بزينب في خلافة أبي بكر، وعاشت أمامة حتى تزوجت من عَلِيِّ بن أبي طالب بعد وفاة خالتها «فاطمة الزهراء». وعاشت معه حتى قُتِلَ، وقال لها عندما طُعِنَ: إني لا آمن أن يخطبك هذا الطاغية «معاوية» بعد موتي، فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك «المغيرة بن نوفل». ولما انقضت عدتها أرسل معاوية يخطبها، وبَذَلَ لها من المال مائة ألف درهم، ولكنها رفضت وتزوجت «المغيرة بن نوفل» وعاشرها حتى ماتت من غير إنجاب، وبموتها انقطع عقب زينب، فرضي الله عنهم جميعاً، وألحقنا بهم في منازل الأبرار الأطهار، في يومٍ لا ينفع مال ولا بنون.

«رقية» و«أم كلثوم»

إذا كان المجتمع المكي قبل أن تشرق عليه أنوار الرسالة يكره البنات ويظن أنهم مجلبات للعار، مطيات للفقر، فإن محمداً الكريم غيَّر نظرة المجتمع في ذلك الحين، وقبل أن تنزل عليه الرسالة، فلقد رُزِقَ بزينب البنت الأولي من زوجته الوفية خديجة، أمَّا رقية فهي البنت الثانية في حياته، وعندما رزق بها لم يتضجَّر، واعتبرها بشري خير وبركة، وشاع بوجودها الدفء في البيت الكريم.

مصاهرة كريمة

ولم يذكر أحد ممن عاصر محمداً في أيامه الأولي أنه بدا عليه نوع من الضيق بإنجاب بنات في مجتمع ينطوي قلبه على الكراهية والبغضاء لإنجاب البنات... وعاشت «رقية» تنعم في بيت أبيها وتحبو من عام لعام حتى إذا ما اكتمل عودها وبدأت العيون تتطلع إليها، خاصة بعد أن انتقلت أختها زينب إلى دار زوجها أبي العاص، تمني كل فتي من أشراف قريش أن يكون له شرف المصاهرة بأبي البنات الكفء الكريم، ونظراً لأن أبا العاص من أقارب خديجة فقد اجتمع

أعمام النبي وتشاوروا فيما بينهم، واتفقوا على أنه لا بد أن يفوز بإحدي بنات محمد أحد أولاد عمه، وكان عبد العُزَّي «أبو لهب» أحد أعمام النبي ﷺ، وزوجته أم جميل ـ حمَّالة الحطب ـ قد طلبا أن يزوِّجا «رقية» و«أم كلثوم» ابنيهما: الأولي من عُتْبة، والثانية من عُتيبة. ونظراً لأن أم جميل سوف تكون «حماة» للفتاتين الكريمتين فإن سيدتنا خديجة قد أشفقت على بنتيها، لأن أم جميل مشهور عنها القسوة وسلاطة اللسان، ولها إرادة تحكُّمية على زوجها وأولادها، كما أنها شرسة الطباع، وفيها صلف أحمق، وطيش أهوج.

وإذا كانت خديجة قد شعرت بانقباض فإنها لم تَبُحْ لزوجها بما في نفسها، خوفاً من أن يقال بأنها تُمانع في زواج بناتها من أقارب زوجها، ولذلك سكتت وهي تخشي على بناتها من تلك المرأة التي تفقد اتزانها لأتفه الأسباب.

أصهار الرسول

وانتقلت «رقية» إلى بيت زوجها وعاشت هناك، وكان محمد الأب الحاني العطوف يغمرها بودِّه وحُبِّه، ومضت الأيام، ونزلت الرسالة على سيدنا محمد ﷺ، ووقفت قريش تصدُّه عن دعوته، وترميه بكل ما في جعبتها من افتراء. ثم فكرت قريش في الذهاب إلى أصهار الرسول الثلاثة: «أبي العاص زوج زينب»، و«عتبة زوج رقية»، و«عتيبة زوج أم كلثوم»، وأن يطلبوا منهم أن يردُّوا على محمد بناته ليزداد همه وينشغل بهن في مجتمع لا يرحم. ولكنَّ أبا العاص كان كريماً، فرفض ما طُلب إليه، أمَّا أم جميل فقد أقسمت على ولديها أن يُطَلِّقا زوجتيهما. واستجاب الولدان، وكان أبوهما مسلوب الإرادة لزوجته ونسي ما توجبه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ على صلة القربى، ولكن المرأة العجوز أرادت أن تشفي غليلها من خديجة التي كانت ملء العيون مهابة وجلالاً.

وكانت أم جميل تؤلِّب الناس بلسانها على صاحب الرسالة وقد رُوِيَ أنه لما نزل قول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1]، ونادى الرسول على بطون مكة جميعاً واستمعوا إليه وهو يقول: «**لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير**

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

عليكم أكنتم مصدقيّ؟»، قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «**فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد**». فردَّ عليه عمه عبد العُزَّي ـ أبو لهب ـ قائلاً: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1]... لآخر السورة. وذلك أن زوجته كانت تحمل الشوك وكل شيء مستقذر وتطرحه في طريق رسول الله، ولما سمعت أُم جميل ما نَزَلَ فيها ذهبت إلى الكعبة ورسول الله ﷺ يجلس ومعه أبو بكر، وفي يد أم جميل قطعة من حجارة، فلما وقفت عليهما لم ترَ إلاَّ أبا بكر فقالت: أين صاحبك؟ بلغني أنه يهجوني، والله لو كان هنا لضربته بهذا الحجر. ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، ألم ترَكَ؟ قال: «**ما رأتني، إن الله أخذ بصرها عني**».

رقية في المدينة

وعاشت رقية في بيت أبيها معزَّزة مكرَّمة، تلحظ أباها في غُدُوِّه ورواحه يبشِّر بالدعوة وينذر من كان حيًّا. وكان ممن آمن برسالته ومن السابقين إلى الإسلام وأحد العشرة المبشَّرين بالجنة «عثمان بن عفان»، وهو من أعرق بيوت قريش، وتقدم عثمان إلى رسول الله ﷺ يسأله شرف المصاهرة، وتزوج «رقية» وهاجر بها إلى الحبشة في المرة الأولى، وعاشت هناك ملء العيون مع زوجها البارّ الكريم، ثم عادت إلى مكة مع من عادوا، فوجدت أن أمها خديجة قد انتقلت إلى جوار ربها، وبعد فترة هاجر أبوها ﷺ إلى المدينة، فهاجرت في إثْرِه وعاشت هناك، ووضعت طفلاً سمَّته «عبد اللَّه بن عثمان» فملأ حياتها، إلاَّ أن الزمن لم يطل به، فمات بعد سنتين من مولده، وعندما خرج أبوها ﷺ إلى غزوة بدر كانت مريضة وتخلَّف زوجها بجوارها ليمرضها، وعاد أبوها منتصراً، وما إنْ وصل إلى المسجد حتى وصل إلى مسامعه نعي ابنته «رقية»، فقام إلى بيتها وشيَّعَ جثمانها إلى مقره الأخير بعد أن صَلَّي عليها والحزن والأسَي ظاهران عليه!! طَيَّبَ الله ثراكِ يا ذات الهجرتين ورزَقَنا الشهادة حتى نلحق بكِ ونكون معكِ في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

---

(١) سورة المسد، الآية ١.

وبعد أن انتقلت «رقية» إلى جوار ربها زَوَّجَ رسولُ الله ﷺ عثمان أختها «أم كلثوم»، وبقيت معه سنوات حتى لحقت بالرفيق الأعلي في حياة أبيها، لذا قال ﷺ يُعزِّي عثمان فيها: «**لو أَنَّ لنا ثالثة لزوجناك**». وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على حُبِّ الرسول له، فقد كان ﷺ يعرف له فضله ورجحان عقله وحُسْن إيمانه، فقد كان عثمان رجلاً صالحاً، ليِّناً، كريماً، حسن المعاشرة رضي الله عنهم أجمعين(١).

«السيدة فاطمة الزهراء»

شاءت إرادة الله تعالى أن يولد للنبى ﷺ قبل أن تنزل الرسالة عليه أربع بنات في بيئة كانت تعتبر ميلاد بنت واحدة عاراً لا يُمحي إلاَّ بوأدها أو إمساكها على هُون، فما بالنا إذا نظرنا إلى محمد الكريم ﷺ وقد رُزق بالبنت الرابعة فسمَّاها «فاطمة» ولم يظهر على وجهه أي أثر من الحزن أو الامتعاض؟

ولقد اقترن ميلاد هذه الطاهرة الزكية «فاطمة الزهراء» بحدث جليل في الجزيرة العربية وهو تجديد بناء الكعبة، وارتضاء قريش لأن يكون أبوها حكماً بينهم فيما شَجَرَ من خلاف في وَضْع الحجر الأسود في مكانه. وكانت سن النبي ﷺ في هذا الوقت خمساً وثلاثين سنة، قبل بدء الوحي بخمس سنوات.

ودرجت فاطمة في بيت الطهر والجلال والسعادة والصفاء. فأمها الطاهرة السيدة خديجة بنت خويلد أسعد الزوجات بزوجها العظيم الذي شهد له أهل مكة جميعاً بالصدق والأمانة، والمروءة والشهامة. وتقدمت بها الأيام، وما كادت تعي ما يدور حولها حتى رأت أباها يعتزل الناس ويختلي بنفسه في غار حراء، ثم شهدته وقد وعت وهو يقول لزوجته خديجة: «**دثِّريني، دثِّريني**» والعرق يتصبب منه. وعندما بَشَّرَ الرسول ﷺ بدعوته آمنت أمها على الفور وأخواتها جميعاً، وآمنت هي بنبوَّة أبيها العظيم. وقد اعتزلت من تلك اللحظة ملاعب أمثالها واقتربت

(١) انظر: «عثمان بن عفان» لمحمد حسين هيكل، ص ٢٤ ـ ٢٥.

من أبيها تلحظه بحنان زائد وعطف بالغ، مما جعل منزلتها في قلب أبيها تزداد يوماً بعد يوم إعزازاً وسموًّا، حتى قال: «**خير نساء العالمين أربع: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة**».

ومضت الأيام بسيدتنا فاطمة، حتى كان حصار المسلمين في شِعْب بني طالب، وعندما فُكَّ الحصار كانت سيدتنا خديجة قد بلغ منها الجهد، ونالت منها الأيام، وضعفت صحتها، فلما شعرت باقتراب أجلها نظرت إلى ابنتها فاطمة في حنان وعطف ومسحت بيدها الحانية على جبين ابنتها، وكان ما يدور بخلدها في تلك اللحظة هو أن زينب ورقية قد تزوَّجتا وأصبح لكلٍّ منهما مستقرّ وأم كلثوم لها من تجربتها في زواج سابق ما يجعلها تطمئن عليها، أمَّا الصغيرة فاطمة فإن أمها تخشي عليها، لأنها سترحل عن الدنيا عمَّا قريب وفاطمة ما زالت في ريعان الشباب ومقتبل العمر، وليس لها سابق عهد بالزواج، فكأنها كانت تُشعرها بحنانها البالغ وعطفها الزائد. ثم هاجرت إلى المدينة المنورة، وعاشت ترعي أباها بعد انتقال أمها الكريمة إلى ربها.

زواجها

والسيدة فاطمة كانت عظيمة منذ طفولتها فهي ربَّة أكرم بيت، تحملت الآلام والأحزان في شجاعة وصبر، فكم رأت الأعداء وهم يتهجَّمون على أبيها، وكم أزالت من على كتفيه التراب، وكم سمعت بأذنها ما كان يردِّده المشركون، ولكن الأقدار ألقت عليها مسؤولية قيادة البيت بعد رحيل أمها ورؤية كل تلك الأحداث، حتى كان يقال عنها إنها أنجح صغيرة قادت أعظم بيت، ولقد كان لرجحان عقلها وخفة روحها ما يجعل أباها يسكن إليها، لأنها تواسيه وتخفف عنه ما يلاقيه من آلام في سبيل دعوته، وقد تقدم إليها صفوة القوم يخطبونها لأنفسهم، ويطمع كل منهم أن ينال شرف المصاهرة من أبيها، خاصة أنها جميلة متبتِّلة، فإنها ريحانة الرسول ﷺ وأعلم نساء الأرض بالقرآن ومعانيه، ولكن كان الرسول ﷺ يردهم برفق، وكان ﷺ يستخير الله في كل أعماله، فانشرح قلبه لعليِّ بن أبي طالب الذي

خطب الزهراء، ورحَّبَ به الرسول ﷺ، وكأنه أراد بذلك أن يرد جميل أبي طالب الذي رعاه صغيراً وآواه إلى بيته، وحماه من بدء الدعوة الإسلامية، ومن أكرم من الرسول الذي يكافئ الحسنة بأكثر من مثلها؟ وقد باع عليٌّ درعه ليجهِّز بثمنه ما يلزم العروس. وتم عقد الزواج في شهر رجب من السنة الأولي من الهجرة، وقد أقيم حفل العرس في بساطة تامة، وخطب عليٌّ يومها خطبة جامعة جاء فيها: «. . . وهذا رسول الله ﷺ زوَّجني ابنته فاطمة على خمسمائة درهم. . .».

وكم تمنَّت سيدتنا فاطمة أن تكون أمها خديجة تري فرحتها، وتشهد سرورها، ولكن ما شاء الله كان، وعندما انتقلت العروس فاطمة إلى بيت زوجها صحبها الرسول ﷺ، ودعا بماء فتلا عليه بعض آيات القرآن الكريم، ثم أمر العروسين أن يشربا منه، وتوضأ هو بالباقي، ونثره على رأسيهما وهَمَّ بالانصراف وهو يقول: «**اللهم بارِكْ فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما**». وقد استجاب الله تلك الدعوات الطاهرة، فكان منها النسل المبارك من آل البيت الأطهار. ولقد عاشت سيدتنا فاطمة مع سيدنا عليٌّ الشجاع الكريم، الذي أسلم صغيراً، وجاهد كبيراً، وفَدَي النبي في ليلة الهجرة، فكان أولَ فدائيٌّ في الإسلام.

كان الرسول ﷺ يحب عليًّا لخلقه وتواضعه وحيائه وعمله، يقول عنه الرسول ﷺ: «**إنه سيد في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، وإنه أكثر الصحابة علماً وأفضلهم حلماً، وأولهم إسلاماً**». . . وقد عاشت السيدة فاطمة في بيت عليٌّ عاملة على تهيئة الجو المناسب لزوجها، كادحة له لأن زوجها لم يستأجر لها خادمة لفقره. . . وقد ذهبت إلى أبيها مرة تشكو ثقل عمل المنزل عليها، وتسأله أن يعطيها إحدي السبايا لتقوم بخدمتها، ولكن الرسول ﷺ برغم حُبِّه الشديد لها ولزوجها قال: «**لا. . . لا أعطيكما وأدع أهل الصُّفَّة تتلوى بطونهم لا أجد ما أُنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم الثمن**». ثم علَّمها أن تقول عندما تأوي إلى فراشها هي وزوجها: سبحان الله ثلاثاً وثلاثين، ويحمدانه ثلاثاً وثلاثين، ويُكَبِّرانه ثلاثاً وثلاثين». فعاشت على ذلك حتى لقيت ربها.

ولم يخلُ بيت السيدة فاطمة من بعض الأمور التي تجري بين الزوجين،

وكان الرسول ﷺ يصلح بينهما، لأن حالة البيت من ناحية الرفاهية لم تكن متيسرة، حتى كان لهما غطاء واحد إذا تغطَّيا به من البرد القارس على رأسيهما انكشفت أقدامهما، ولكن الذي كان يعزِّي فاطمة هو المودَّة والصفاء، والإيمان والإخلاص.

السلالة الطاهرة

نعلم أن أبناء الرسول ﷺ لم يبقَ من نسلهم إلاَّ ما كان من فاطمة وعليٍّ، فقد وُلد الحسن بن علي من السيدة فاطمة في السنة الثالثة من الهجرة، وولد الحسين في السنة الرابعة من الهجرة، وكذلك زينب في السنة الخامسة، ثم ولدت أم كلثوم. وقد حَبا الله الزهراء البتول بحفظ نسلها، مما كان له أثر طيب في نفس الرسول ﷺ، مما جعله في أُبوة حانية على هؤلاء الأطفال، يحملهم على كتفه ويطيل السجود إن عَلَوْا على ظهره وهو ساجد، وينزل من على المنبر عندما يري الحسن والحسين يتعثران في مشيتهما ويحملهما ويصعد بهما ليكمل خطبته. ثم يراه الصحابة وقد أمسك بالحسين وهو مع صبيان في مثل سنه يلعبون في شوارع المدينة ويُقَبِّلُهُ ويقول: «**حُسين مِنِّي وأنا من حسين... اللَّهُمَّ أَحِبَّ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً**»... إن هذا الحب الجارف من هذا القلب العظيم الذي كان يحب الدنيا بأسرها لتلك الثمرة الطيبة المباركة جعلته يقول لابنته وقد سمع بكاء ابنها: «**أَوَ ما علمتِ أنَّ بكاءَه يؤذيني؟**».

لقد كانت سيدتنا الزهراء البتول فاطمة الكريمة التي يقول عنها أبوها العظيم: «**رِضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أَرْضَى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخطَ فاطمة فقد أسخطني**». ولقد شهدتْ في أيامها الأخيرة مكة وهي تدخل في دين الله، وأهل مكة وهم يعلنون الولاء لأبيها، ومع ذلك عاشت طيبة كريمة، تسعد بما يُتْلي عليها من القرآن الكريم في شأنها: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[2]. وحفظ الله نسل رسوله الكريم منها وحدها.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

(٢) سورة هود، الآية ٧٣.

وفاتها

بعد أن شهدت انتصار أبيها وتبوأه مكانة الزعامة في الجزيرة العربية، مضت الأيام بها ليس هناك ما ينغِّص عليها حياتها أو يكدِّر صفوها، وانتقل أبوها ﷺ إلى الرفيق الأعلي بعد أن همس في أذنها بأنها أوَّلُ من يلحق به من أهل بيته. وكانت رضي الله عنها محسنة متصدِّقة، صوَّامة قوَّامة، وأفضل نساء أهل الأرض في زمانها... أَحَبَّها القريب والبعيد، ومدحها الشعراء على اختلاف الأزمان بينهم، وكَتَبَ فيها الكُتَّاب، وقال فيها الشاعر: «هي بنت مَنْ، هي زَوْج مَنْ، هي أُمُّ مَنْ، من ذا يُداني في الفخار أباها؟!...».

ثم لحقت بربها بعد وفاة أبيها بستة أشهر... فرضي الله عنها، وحشرنا في زمرتها يوم الدين.